تداعيات الإخفاق في العراق

سوف تكون مروعة، ولكن لا زال هناك إمكانية لتفادي الإخفاق

بقلم راوول مارك غيرتش ، 2007/15/01 – ويكلي ستاندارد

ما هي النتائج التي يمكن أن يفضي إليها انسحاب الأمريكيين من العراق؟ إن محاولة إحاطة الذهن بتداعيات الإخفاق في العراق ــ ــ التصادم السني–الشيعي الهائل والذي يمكن أن يؤدي إلى إبادات جماعية وأن ينفجر حول القوافل العسكرية الأمريكية الفارة جنوباً ـ ـ هو أمرٌ مخيف. إلى حدٍ ما، هذا هو السبب أن البعض فقط بذل وقتاً في الحديث عما سيؤول إليه الوضع في العراق، المنطقة، والولايات المتحدة فيما لو أن الحكومة في بغداد وجيشها انهارا و تحولا إلى ميليشيات سنية وشيعية تشن حرباً حتى الموت. من بين الكثير من الأمور التي أغفلها تقرير فريق دراسة العراق، والذي وُلد ميتاً، هو افتقاده لوصف مدعم عن النتائج الممكنة والمحتملة لعراقٍ مفتت.

من قبل الغوص في هذه المسألة، فإن بعض التعليقات حول الموقف الأمريكي واستمرار أسباب وجود الأمل بشأن العراق، تعتبر في محلها. إن الأمريكان، التي كانت السياسة الخارجية بالنسبة لهم دائماً مشحونة بالضرورات والتحفظات الأخلاقية، لا يرغبون التحديق في الهوة الأخلاقية الدموية التي قمنا نحن بحفرها بشكلٍ أساسي. هذا السعي المتزايد من قبل الحزبين لإلقاء اللوم على العراقيين بالنسبة للفوضى في العراق هو، إلى جانب أمور أخرى، رد فعل لإغلاق الباب أمام كل المعلومات السيئة التي ترد. للكثيرين في واشنطن، إن لم يكن للبلد بأكمله، إن العراق قد أصبح فييتنام الثانية ــ لا مجال للنجاح، آلاف الضحايا، يوجد اعتقاد مقيت بأنه من الأفضل أن ندع الأجانب البغيضين وعديمي الشفقة أن يستعيدوا البلد. توماس فريدمان، الكاتب في مجلة الـ نيويورك تايمز والمؤيد للحرب، كتب مؤخراً، "زيادة عدد الجنود يكون ذات معنى فقط إذا كان ذلك من أجل كسب المزيد من الوقت لفسح المجال أمام التوجهات الإيجابية التي بدأت تظهر في الأفق. لكن لا يمكنني رؤيتها".

بمعنىً آخر، إذا لم يكن ممكناً لنا تصور النصر ــ حل سياسي يجعل السنة والشيعة يعيشون في سلام مع بعضهم البعض ــ فإن محاولة منع النتائج المرعبة لخروج الأمريكيين من العراق هو أمرٌ غير ضروري. إذا لم يكن لدينا تعريفاً عملياً لـ "النجاح"، إذاً فإننا لا نتحمل مسؤولية أخلاقية لمنع كارثة، وإن كنا مسؤولون بشكلٍ كبير عن تلك الكارثة. إن الجانب الأخلاقي في هذا التفكير يُعتبر خطيراً: هل ينبغي أن لا نحاول أبداً إيقاف عمليات القتل الواسعة؟ أو أن نحاول إيقافها فقط عندما لا نكون قد تسببنا بها؟ أو نحاول إيقافها فقط إذا كان ذلك لن يلحق الأذى بنا أثناء القيام بهذا المجهود؟ رؤية توجهات إيجابية هو أمرٌ صعب عندما يكون الوضع الأمني في العراق في تراجع، تحديداً، لأن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وجنرالاته جون أبي زيد وجورج كايسي لم يرو بأن مثل هذا الواجب الأساسي لقوة محتلة على أنه من مهامهم.

ولكن الخلفية البراغماتية الأميركية التقليدية التي يحملها فريدمان لا تقبل الشك. وإن الإدارة الأمريكية كانت مقصرة في إهمال وصف ما هو خلف الأفق فيما لو ربحنا، أو خسرنا. بقي كبار موظفو الإدارة إلى حدٍ كبير صامتين حول الاحتمالات الممكنة كانت جيدة، سيئة أم حقاً كارثية، فاسحين المجال للرئيس ليقوم وحده بإطلاق تلك الخطابات التشرشيلية. وتلك الخطابات كانت تفتقر عادةً إلى ما كان لدى

تشرشل وعلى درجة كبيرة من: التقدير الدقيق للمعاناة، والوصف الحي لما كان يعنيه الإخفاق. بلغة خطابية، إن وضع العراق قد أصبح صعباً إلى درجة لا يمكن التحكم به.

العراق يهزم. ولكن لا ينبغي عليه ذلك. حتى المتطير لا زال يستطيع النظر إلى المكان ويرى بأنه غير ميؤوس منه. إن خطة مكافحة الشغب التي تم تقديمها من قبل جنرال الأربع نجوم المتقاعد جاك كين والعسكري التاريخي فريديريك كاغان تقدم فرصة معقولة للنجاح ــ ولعلها الشيء الوحيد الذي لدى الإدارة الأمريكية من قبل أن ينهار العراق. فلو قام الرئيس بتقديم الإمكانات الضرورية ضمن الخطوط التي اقترحها كين–كاغان، يحتمل للراديكالية في العراق أن تنقلب إلى ضدها. تبقى الامكانية الديمقراطية والسياسية في بلاد ما بين النهرين أكثر مما يتخيله أغلب من هم في مؤسسة السياسة الخارجية في واشنطن. العراق ما بعد صدام لم يكن ليكون يوماً بلداً ديمقراطياً ليبرالياً محكوماً من قبل العراقيين المتغربين والماديين. إن الإنجاز العراقي الكبير لن يكون إنشاء نموذجاً للانتقال السلمي من الديكتاتورية إلى الديمقراطية. هذه الإمكانية ماتت منذ خريف **2003**. ولكن احتمالات أن يتمتع العراق بديمقراطية غير كاملة ولكن فعالة حيث أن السلطة تتنقل من يدٍ إلى أخرى في الانتخابات تبقى على الأقل بجودة ما يطمح إليه أولئك من ولادة ديكتاتورية شيعية ــ ذلك فيما لو أن الولايات المتحدة اعتمدت التكتيك الصحيح.

إن العراق بعد صدام قد تحول بالنسبة إلينا وللعراقيين إلى ضربٍ من العناد. إن القصة المهيمنة هي قصة الأمة الواحدة، الشيعية، التي تسعى لاعتماد ترتيبات سياسية ديمقراطية بينما يتم قصفها من قبل الثوريين العرب السنة والمجاهدين ونبذها على أنها مسلمون عرب غير أوفياء من قبل الطبقات الفكرية الدينية العربية السنية في الشرق الأوسط. للقناة الفضائية العربية، الجزيرة قيمها ــ مشاهدة الأصوليين الدينيين وكل القوميين العرب يصرخون في وجه بعضهم البعض هو أمرٌ محض جيد في الشرق الأوسط ــ ولكن تغطيتها وتعليقاتها على العراقيين الشيعة هي مشينة بالمجمل، الدفاع المستمر عن التعصب الأعمى والدموي ضد الشيعة.

إن القيادة الشيعية العراقية، لا سيما رجال الدين التقليديين الذين يقفون خلف آية الله السيستاني، قد سعت لتقي أتباعها من التحول إلى ميليشيات عدائية وعسكرية، وإن كان الأمريكيون يولون هذا الأمر القليل من التقدير. الديكتاتورية الشيعية، النتيجة الأخرى الممكنة في العراق، لا زال من المواضيع المحظورة بين الشيعة. في المقابل، فإنه من غير الصعب إيجاد عرب سنة يتوقون لعودة زعيم سني؛ فمنذ بداية علاقتها الحميمة بآياد علاوي، إن واشنطن على الأغلب كانت لتضحي بكل سرور بالمبادئ الديمقراطية لصالح القوة الديكتاتورية.

ولكن لا زال العراقيون الشيعة يعلمون بأنه لا يمكنهم أن يسيروا في طريق الدكتاتورية من دون التسبب في صراع داخلي. وكما حاول السيستاني وأتباعه أن يشيروا بأن الديمقراطية بالنسبة للشيعة تعني بالدرجة الأولى استمرار العيش المشترك. وطالما أن هذا الاعتقاد يبقى قائماً، فإن التنازلات الضرورية لإبقاء الشيعة متكاتفين تقدم للسنة العرب العراقيين طريقاً للخروج عن التمرد والحرب المقدسة. وهذا لن يكون سهلاً ولا حتى جميلاً. وفي أفضل الحالات ــ حتى إذا استطاع تحرك عسكري ناجح بقيادة أمريكا ضد التمرد السيطرة على الوضع وبدأت السياسة العراقية وببطء تصبح أكثر طبيعية ــ فإن إرادة الشيعة للانتقام من الوحشية السنية وإرادة السنة للانتقام من الجماعات الانتحارية الشيعية سوف تبحث عن الفرصة للتصادم. فلو أن الغربيين تأملوا بالعنف الذي لازم نشوء ديمقراطيتهم لكانوا أكثر تقديراً للمسافة التي قطعها العراقيون في ظل الظروف المروعة.

المعجزة في العراق هي أن الحكومة العراقية، بالرغم مما هي عليه من ضعف ومذهبية، لم تيأس من محاولة الالتزام بالقوانين كما لم تتخل بشكلٍ كامل عن دستورها الغير الملائم. لا شك بأن وجود وقوة الأمريكان هي السبب الرئيس وراء عدم تردي الأوضاع إلى ما هو أسوء. ولكن

فقط الأعمى، الأصم، الأبله، والذي لديه حقد سياسي لا يمكنه رؤية بأن العراقيين أنفسهم، خاصةً الشيعة، لا زالوا يحاولون بكل ما أوتوا من قوة من أجل تفادي الوقوع في الهوّة. إذاً، فبعد رؤية أنه لا زال يوجد ما يكفي من الأمل السياسي في الأفق العراقي، لنعود إلى مسألة ما يمكن أن يحصل في بلاد ما بين النهرين والشرق الأوسط في حال رحيل الولايات المتحدة.

لا شك بأن النتيجة الأكثر سلبيةً للإخفاق في العراق هو الاحتمال بأن الانسحاب الأمريكي سوف يتسبب بحرب أهلية بين السنة والشيعة العرب والتي يمكن أن تصل بسهولة إلى مستوى الإبادات الجماعية. نموذج تاريخي مماثل يطرأ على الذهن هو الحرب بين شبه القارة الهندية والمسلمين التي وقعت أبان استقلال الهند. فبالرغم من الاختلاف في المعتقدات، فغالباً لم يكن ممكناً التمييز ما بين هنود ومسلمو ما قبل عام **1947** من حيث الشكل، الثقافة، واللغة. ولكنهم قاموا بتطهير عرقي لبلادهم الجديدة، الهند وباكستان، بحماس فائق. ما بين الـ**500.000** والمليون مسلم والهندي تمت إبادتهم، عشرات الآلاف من النساء تم اغتصابهن، وأكثر من عشرات الملايين من الناس أجبروا على ترك بيوتهم. هذه الدرجة من البربرية يمكن أن تحصل بنحوٍ سريع في بلاد ما بين النهرين، وقبل وقتٍ طويل من انسحاب القوات الأمريكية من البلد.
بعض المراقبين الغربيين لوضع العراق والكثير من المعلقين العرب، قد اقترحوا بأن الوجود الأمريكي في بلاد ما بين النهرين هو الذي زاد من حدة الفوارق بين السنة والشيعة. فلو أن الأمريكان ينسحبون، لكان من الممكن التوصل إلى صيغة عيش مشترك من قبل أن تتطور عمليات القتل الواسعة. إن الاشتراك في العروبة والإيمان بالرسول(ص) كان ليعود ويفرض نفسه بنحوٍ فعال ومفيد. ولكن، على ما يبدو فإنه هذا غير محتمل الحدوث. فإن العراق منذ عام **2003**، ينبئ وبقوة عن نتائج مخالفة. فإن حدة العنف كانت تزداد في كلٍ من المناطق السنية والشيعية، عوضاً عن أن تتراجع كلما كان يتم التخفيض من التواجد العسكري للأمريكيين والبريطانيين.

لا زال ولحسن الحظ الكثير من الأماكن في العراق تخلو من الاقتتال بين السنة والشيعة. ففي بغداد، ولو أنها لا تعطي نموذجاً عن هذه الحالة بدقة، كون بغداد هي مركز السلطة. إن الهوية العراقية السنية التي تكونت منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية كانت إلى حدٍ كبير حول بغداد. فإن شهرة المدينة شكلت عامل جذب بالنسبة للسنة أكبر بكثير مما شكّلته بالنسبة للشيعة ـــ حتى بالنسبة لشيعة "مدينة الصدر"، حي الأقليات، الذين قاموا بتقديم عناصر لأسوء ميليشيات شيعية في المدينة. إن التمرد السني والحرب المقدسة كانت دائماً بهدف الحفاظ على السلطة وليس من أجل طرد المحتلين الكفار. وهي تقف بتناقض حاد مع التمرد الشيعي الذي وقع عام **1920** والذي كان ردة فعل ضد السيطرة البريطانية على بلاد ما بين النهرين والتي كانت مرفوضة من قبل الدين، وليس مطالبة شيعية للحصول على السلطة بين السكان العرب ما أصبح لاحقاً العراق.

قصم ظهر التمرد السني قد عنى دائماً الإنكار على الرافضة العرب السنة(لربما جزء مهم من سكان المدينة السنة) أي أمل في السيطرة على بغداد وبالتالي على البلاد. فيما لو تصدى الأمريكيون لهذه المهمة فإن السكان العرب السنة لا سيما أولئك الذين لا يدعمون المجاهدين، سوف يعانون من أضرار قليلة نسبياً. إننا نعرف كيف نقوم بتحرير المناطق السنية في المدينة ـــ ولكننا لم يكن لدينا العديد الأمريكي اللازم ليمسك بما قمنا بتحريره. ولكن، إذا ما آل الأمر للشيعة (وسوف تكون الميليشيات الشيعية من يقوم بذلك، وليس الجيش العراقي، الذي من المحتمل أن يسقط بسرعة عندما تبدأ القوات العسكرية الأمريكية بالانسحاب من المدينة) فإنه سوف يتم سحق السكان العرب السنة. فإن النزوح السني والشيعي الذي رأيناه حتى الآن من بغداد يكاد لا يُذكر مقابل ذلك النزوح الجماعي الذي سيتم فيما لو أن هاتين الجماعتين بدأت بالاقتتال من أجل السيطرة على المدينة والهوية الجديدة للبلاد.

إذا قمنا بترك العراق في أي وقت قريب، فإنه من المحتمل بأن الحرب على بغداد سوف تؤدي إلى اندلاع نيران تقضي على كل العراقيين العرب والأرجح على الكردستانيين أيضاً. فبعد أن يواجه الشيعة الأذى الدموي العنيف والنصر في الوقت نفسه، فإن مشاعر دينية وقومية خام سوف تبدأ بالنشوء. وإنه من المؤكد بأن الاقتتال المميت مع العرب السنة سوف يجلب دعم المؤسسات الدينية السنية الشديدة العداء للشيعة في الأردن والمملكة العربية السعودية وللشيعة من إيران. ومن المحتمل أن يؤدي هذا الأمر إلى تدمير وسط العراق بأغلبه ويثير شهية جنرالات العرب الشيعة، الذين سوف يحكمون جماعتهم عندها، للصراع مع الأكراد. فلو قام الأمريكان بإيجاد التوازن عند العرب العراقيين وذلك من خلال احتلال المثلث السني، فإن ذلك لن يحدث.

ومن المحتمل أن يتمكن وجود عسكري أمريكي قوي وعدواني من الحد من راديكالية الجماعة الشيعية. تخيل عراق مصنوع على نسق حزب الله–لبنان أو فيلق الحرث الثوري الإيراني. أسوء عناصر في النظام الإيراني يتمركزون بضخامة في فيلق الحرس الثوري والمؤسسة الاستخباراتية، المؤسستان الأكثر نشاطاً داخل إيران. وكذلك إن حزب الله–لبنان أيضاً موجود لتقديم الدروس. هذه القوى تحتاج لأن يتفاقم الصراع كي تنمو. تخيل لو أن العراقيين الشيعة، بعد أن أصبحوا معتادين على الحروب لدخولهم في حرب قاسية مع العراقيين السنة العرب، قاموا بالارتباط معنوياً وعملياً بدكتاتورية دينية عدائية في إيران. تخيل بأن المقاتلين العراقيين الإسلاميين السنة، الذين تم طردهم من العراق، التحقوا بجماعات مثل القاعدة، يعيشون ليستشهدوا بقتلهم الأمريكيين. تخيل بأن المملكة الهاشمية الأردنية قد غرقت بمئات الآلاف من اللاجئين العراقيين السنة العرب. إن الهاشميين كانوا محظوظين وأذكياء منذ الحرب العالمية الثانية. فقد نجوا عدة مرات من التعرض للإبادة. فهل أن هناك من هو مستعد للرهان على أن المملكة سوف تصمد وتستمر بعد زرع جيش من المقاتلين السنة العرب العراقيين الملتهبين غيظاً؟ بالنسبة لأولئك الذين يظنون بأن عملية السلام الإسرائيلية–الفلسطينية تشكل النقطة المحورية للشرق الأوسط، فإن النزوح الواسع للعراقيين العرب السنة إلى الأردن سوف يقضي على الفرص القليلة الباقية بأن يصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى توافق. فبوجود المشاكل في الأردن، التي تعج بالعراقيين المناهضين بوحشية للأمريكيين والإسرائيليين، فإن التقدم بعملية السلام على حدود الضفة الغربية من النهر الأردني يصبح كمحاولة إيجاد كأس المسيح.

إن تأثير الاصطدام السني–الشيعي في العراق على كامل الشرق الأوسط محتمل أن يكون كبير جداً بحيث يصعب استيعابه. من المؤكد، بأن السنة العرب في مصر، الأردن، والسعودية سوف يرون الانتصار الشيعي الدموي والذي سيتم تحقيقه بعد جهد ومشقة في العراق على أنه انتصار كبير للإيرانيين. فالمصريون والسعوديون سوف يلجؤون لأسلحتهم النووية الخاصة بهم. وما يملكه الأمريكان والأوروبيون من فرص قليلة لتطويق طموحات الأسلحة النووية للنظام الديني سوف يتم القضاء عليها بصراع سني–شيعي مميت في بلاد ما بين النهرين، والذي بدون شك سوف يكون الانتصار فيه للشيعة. إن الإسرائيليين، الذين احتمال قيامهم بضربة إستباقية للمنشآت النووية الأساسية في إيران يتزايد مع انتهاء عهد الرئيس بوش، سوف يشعرون بتهديدٍ أكبر لا سيما عندما يقوم النظام الإيراني بالتأكيد على صراعه ضد العدو الصهيوني كوسيلة للتعويض عن دعمه للانتصار الشيعي الدموي في العراق.

في حال الانسحاب الأمريكي الكلي من العراق، فإن النظام الديني، الذي غالباً ما كان ينظر إلى الإرهاب على أنه أداة لإدارة شؤون الحكم، سوف يعود إلى العقلية والتكتيكات التي أنتجت تفجيرات الخبر عام 1996. إذا كان الأمريكان يقومون بالانسحاب، أقصفهم.

هذا لن يكون فقط عبارة عن نظرة شيعية راديكالية؛ وإنما هو النظرة التي توصل إليها أسامة بن لادن وأمثاله قبل أحداث **11/9**. إنه من غير المفيد مناقشة ما إذا كان كانت الحرب في العراق قد فاقمت من الحرب المقدسة الراديكالية السنية ضد الولايات المتحدة. ولكن لا ينبغي أن يكون هناك أدنى شك بأن هزيمة الأمريكان في بلاد ما بين النهرين سوف تشكل أكبر انتصار على الإطلاق على المستوى النفسي بالنسبة للجهاديين المعادين لأمريكا. فإن القاعدة وحلفاءها من المقاتلين العراقيين يمكن لهم أن يسيطروا على غرب العراق لسنوات — — فقد تحتاج المسألة إلى بعض الوقت من قبل أن يتمكن الشيعة من إخراجهم من هناك. فكيف يمكن للولايات المتحدة من القضاء على هؤلاء الشياطين عندما لا يكون لها قوات عسكرية متواجدة على أرض الأنبار؟ القوة الجوية؟ هل نقوم بنقل قوات خاصة بواسطة الهليكوبتر من حاملات الطائرات في الخليج الفارسي إلى أرض معركة نائية في الوقت الذي تكاد تكون فيه معلوماتنا الاستخباراتية في هذه المنطقة الصحراوية شبه معدومة؟ صور الصحراء الأولى في عام **1980** تأتي إلى الذاكرة. لن تكون لا الكويت ولا الأردن متلهفة للسماح باستخدام مهبط طائراتها للعمليات الأمريكية التي تعزم على قتل السنة الذين يقومون بقتل الشيعة.

إن النجاحات التي حققناها في كل من العراق وأفغانستان كانت نتيجةً لوجود محط قدم لنا هناك. ببساطة فإنه من غير الممكن أن يكون لمركز الاستخبارات الأمريكية أو الاستخبارات العسكرية مجموعة برامج يُعتمد عليها فيما لو أن الولايات المتحدة الأمريكية قامت بالتراجع بنحوٍ هام. هل سنقوم بإعادة احتلال غرب العراق؟ أعضاء مجلس الشيوخ جون كيري وباراك أوباما يقولان أنهما لكانا أكثر تشدداً مع القاعدة مما عليه إدارة بوش. ولكن يتساءل المرء كيف يمكن لهما إثبات ذلك في العراق بعد أن يقوم الأمريكيون بالانسحاب. أبالقيام بتقديم الأسلحة للمقاتلين الشيعة الراديكاليين الذين يقومون بقتل السنة على التخم الغربية باتجاه الحدود الأردنية؟

كل ذلك يمكن أن يكون كلام مجرد بالنسبة لأغلب الديمقراطيين والكثير من الجمهوريين. فإن الأمريكيين ضعفاء لا سيما عندما تتعلق المسألة بتفهم والتعاطف مع أشخاص يعبرون عن حبهم لله من خلال الموت. ولكن هذه المسائل تهم الجاهدين الإسلاميين وأولئك الذين يحملون روح الشهادة. فمن الأفضل أن نأمل بأن الأساليب الأمريكية المعتمدة ضد الإرهاب تكون كافية لمنع التزايد الضخم المحتمل في صفوف المتطوعين الجهاديين. لقد أكد ريست بأنه مع انسحاب أمريكي، وقيام العراقيين الشيعة بسحق العرب السنة في التراب، فإنه من غير المحتمل أن تكون السعودية ومصر متعاونتان في الحرب ضد الإرهاب. فمن المؤكد أن تحرك مصر والسعودية لدعم المقاتلين الأصوليين في أوقات الضغط سوف يتحول إلى محرك قوي كلما أشتد خوف القاهرة والرياض من عدوان شيعي تقوده إيران. من المحتمل أن المصريين والسعوديين، العقل المفكر للجهاد العربي، أن ينظروا إلى سيطرة الشيعة على العراق، التي ستخلق حالة نزوح لآلاف المئات من العرب السنة العراقيين، بنفس المنظار الذي ينظرون فيه للثورة الإسلامية الإيرانية.

فإن تلك الثورة، وأكثر من أي أمر آخر، خلقت حركة تبشيرية عالمية من قبل السلفيين والوهابيين لمجابهة انتشار الإسلام الراديكالي بقيادة إيران، مما هيأ بدوره لقيام بن لادن وأتباعه. فإذا جمعت الانتصار الشيعي في العراق مع إعادة انبعاث مركزية قوية في إيران التي يمكن لها أن تحوز قريباً على السلاح النووي، فإن الاحتمالات التي يمكن أن تتسبب بتدمير العراق يمكن أن تكون أكثر بكثير من تلك التي للثورة الإيرانية عام **1979**. وكذلك فإن هزيمة أمريكا في بلاد ما بين النهرين، سوف تعزز من قاعدة حركة طالبان، التي وُلدت من جديد، في كل من أفغانستان وباكستان. فمن الصعب التخيل أنه يمكن لأي حدث آخر أن يبعث الأمل والحياة في نفوس الإسلاميين المعادين بشدة لأمريكا في هذين البلدين. رئيس باكستان، بيرفيز مشرّف، قد سبق وبدأ بإبرام اتفاقات مع القبائل المؤيدة للقاعدة في أفغانستان. فهل من المعقول تخيل، كما يفعل الكثير من الديمقراطيين على ما يبدو، بأن أمريكا، حلفاءها الأوروبيين، والأفغان والباكستانيين الذين يحبوننا سيصبحون

أشد قوةً في الدفاع عن أفغانستان بعد أن يتخلى الأمريكيون عن العراق؟ ألا يوجد احتمال أكبر بأن طالبان، القاعدة، والجنرال مشرّف سوف يرون الأشياء بصورة مغايرة تماماً؟ هل يمكن للروسيين والصينيين، الذين يدخلون وبشكلٍ متزايد في أعمال شائنة في الشرق الأوسط وغيره من البلدان، أن يكونوا جداً كرماء بحيث لا يقومون باستغلال العراق بعد أن ينسحب الأمريكيون منه؟ فإن روسيا سبق وأصبحت بلد خبيث يسعد بالقتل ويقوم ببيع الصواريخ المضادة للطائرات والتي يمكن فقط استخدامها ضد إسرائيل وأمريكا، إلى إيران. النماذج السوفياتية بدأت تعود إلى الشرق الأوسط.

إنه بمقدورنا أن نمنع مثل هذه السيناريوهات المريعة. كان ينبغي أن نتفاءل كثيراً في رفض آية الله السيستاني مؤخراً الموافقة على حكومة وحدة والتي كان من الممكن أن تؤدي إلى اقتتال عنيف بين الشيعة ـــ ما يؤدي قطعاً إلى تدمير البلاد. فإن رفض السيستاني للتوقيع على هذا المخطط أدى للقضاء عليه. إن الأخبار الجيدة والمهمة: أن قوة السيستاني لم تمت. حتى أتباع الصدر لا زالوا يتوافدون لرؤيته. بالرغم من أنه كان شبه منعزل سياسياً بعدما قام المقاتلين السنة بتدمير مقام سامراء في شباط 2006، فإن العلامة والإجماع الشيعي المسالم الذي يمثله لا زال حياً. من الجانب الشيعي، لا زال الرجال المعتدلون يتمتعون بالقدرة على التأثير والإقناع.

لا أحد من الجانب الشيعي قام بمواجهة السيستاني علنياً لدعمه للديمقراطية. ومن المؤكد بأن الكثير من الأشخاص في الأحزاب الشيعية المسيطرة يفضلون بصورة شخصية نوع من الديكتاتورية ذات المنحى الديني. ولكن كما علّق توماس فريدمان مرة بنوع من بعد النظر بأن ما يهم هو ما يعلنه الناس في الشرق الأوسط الإسلامي. في العلن، إن دعم الشيعة للدولة الديمقراطية يبدو قوياً اليوم كما كان عليه قبل الهجوم على المقام، الحدث الذي تسبب بأن يفقد الشيعة صبرهم ضد أعمال العنف والنهب التي يمارسها السنة العرب.

بالمقابل، السؤال الذي يبقى عالقاً هل أنه يمكن للولايات المتحدة أن تتلقى الضربات من المتمردين السنة والجهاديين وتبقى محافظة على مهمتها الأساسية. فإن الرئيس بوش، وبالرغم من أخطائه وضعف اختياره لمعاونيه، فقد حافظ على إيمانه بالشعب العراقي. لقد خاض في الحرب الجيدة والشريفة. لقد رأى المستقبل بوضوح في حال ترددنا. يمكننا فقط أن نأمل أنه في حرب أمريكا الكبيرة من أجل بغداد، بأن يصل هو والسيستاني إلى النصر.